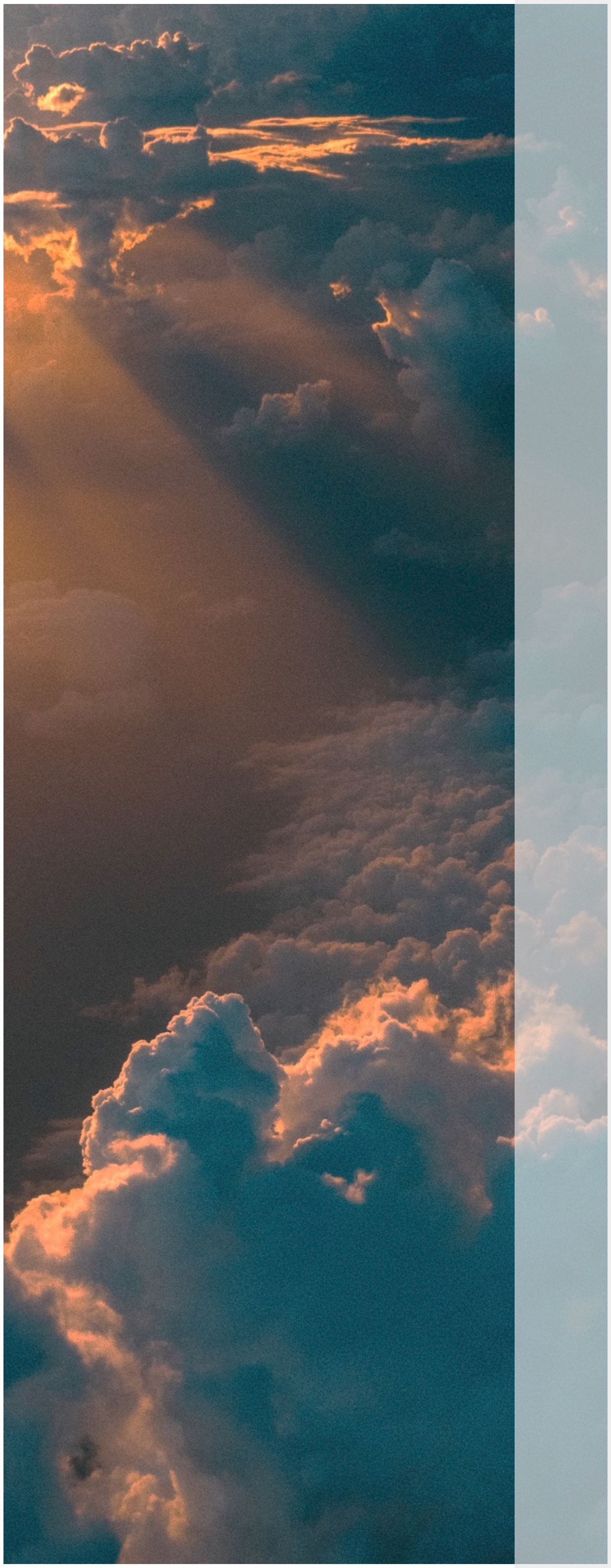

تفريغ محاضرة

داوِ جرحَك لا يتّسع

لا تغلبنّ آحادُك عشراتك

رواء الاثنين | د. هند القحطاني

٢ / ٣ / ١٤٣٩ هـ

من نحن ؟

نحن مجموعةٌ نهلنا من معين محاضرات د. هند بنت حسن القحطاني، التي هطلت بروائها على قلوب السامعين، ولما شهدنا ذلك الهطل غيثا مُغيثا مريئا، عملنا بكلّ جدٍ وحُبٍ على جمع المحتوى وتنظيمه ونشره ليسيلَ عذباً إلى قلوبكم

نسعدُ بملاحظاتكم واستفساراتكم على البريد الالكتروني:

info@rawaa.org

بسم الله الرحمن الرحيم

الأدلة من القرآن أو السنة النبوية تأخذ الإنسان إلى عالم محاطٍ بالطمأنينة والراحة لأنه يشعر حينما تطرق سمعه أنَّه يعيش في كنف إلهٍ رحيمٍ غفورٍ ودود، اقرأ هذه الأدلة ثم أغمض عينيك لبرهة وتأمّل فيض الرحمات قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

(يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة) حديث صحيح

ومن الآيات التي تشعر الإنسان بواسع رحمة الله عز وجل وفضله

قول الله عز وجل:

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}

سورة الزمر53

قف عند قوله:

{إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}

وأَعِدها مراراً وتكراراً؛ لتجد أثر الطمأنينة في قلبك حيث الشعور بأن كل الذنوب ستكون مغفورة في كنف الله، وأن نفسَك الضعيفة مغمورة برحمات الله عز وجل وغُفرانه.

وخذ أيضًا قول النبي عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام:

(إن الله عز وجل يبسط يدهُ بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) حديث صحيح

فما يشعر الإنسان أنه سيكون مطرود من رحمة الله ولا حتى في لحظة من اللحظات، فأنا وأنت وذاك لا يمكن أن تتجاوز ذنوبنا هاتين الفترتين إما صباحاً أو مساءًا, نذنب ويبسط يده لنتوب ..

كما أن هناك أيضا أحاديث من نوع آخر تتجلى فيها الرحمة وتسمو فيها المغفرة كقوله صلى الله عليه وسلم:

(الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) حديث صحيح

وقوله عليه الصلاة والسلام:

(تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الصبح غسلتها، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا) حسن صحيح

فانظر إلى البلاغة في هذا الحديث حيث شُبّهت الذنوب التي يمارسها الإنسان بشكل يومي، وكأنها نار تحرقه، وصوّر الصلوات وكأنها ماءٌ زلالٌ عذبٌ يغسل ما خلّفته هذه الذنوب من آثار فتكفّر ما بينها، ها هي بركات الصلاة، فماذا عن الصيام؟ فصيامُ يوم عرفة كفارة سنة قبله وسنة بعده، وصيام عاشوراء كفارة للسنة التي مضت، وانظر لبركة الحج ترجع منه كيوم ولدتك أمك، وعلى ما نجني من هذه البركات من حسنات وحسنات فهي لا تقف عند ذلك بل تضاعف لنا **أضعاف وأضعاف**، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

{وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ}

[سورة البقرة261]

إذاً لا يوجد حسنة يمارسها الإنسان وتحسب في صحيفته حسنة واحدة فقط، بل لابد وأن تضاعَف، بخلاف السيئة، فمن واسع فضل الله عز وجل ورحمتهِ أنها لا تضاعف، بل كل سيئة تكتب سيئة واحدة فقط في صحيفتك.

السؤال المهم الآن:

إذا كنّا نعيش بهذه البركات الهائلة من الرّحمة والمغفرة،
فلماذا يظل أُناس يدخلون النّار؟
ولماذا تغلب سيئاتهم عشرات الحسنات المضاعفة؟
ولماذا يظل أُناس بعيدين جداً عن الله ولا يشعرون بلذة الإيمان؟ في داخلِ قلوبِهم؟

هناك **أسباب** تجعل الإنسان يبتعد عن هذا المطر الهائل من الرحمات ...

السبب الأول

الإحساس بأنّه لا يزال في الحياةِ مُتّسع

نختصرها بكلمة واحدة " الأمل".

فالأمل الطويل عند الإنسان وإحساسه بأنَّ الحياة لا يزال فيها مُتسع، وأنه لا يزال فيها فصول لم يعشها، وأحداث لم يخضها بعد، وقد وضع لنفسه خططاً مستقبلية بعيدة المدى وكأنه يضمن بلوغه إليها، بينما لا يدري أحدنا متى تنتهي حياته؟ فحياتنا كلها نعيشها بين قوسين، القوس الأول فُتح بمجيئنا لهذه الدنيا، ونحن الآن نسير نحو القوس الثاني لنغلقه، فحياتك التي بين قوسين تعيشها وتمضي بها، وليس هناك من يهمس في أذنك بموعد موتك وانتهاء أجلك، ولا يمكن لأي أحد منا أن يعرف متى يحين ذلك!

وأحياناً لما ترى في مواقف الناس الذين أُخذوا على حين غرَّة، وقبضت أرواحهم فجأة وبلا سابق إنذار، يشعر الإنسان بأن الموت أقرب مما يتخيّل، فالجنة أو النار أقرب إليك من شراك نعلك، فالنعل - أجلك الله - التي تلبسها ملتصقة بقدميك، كما أنّ ما بينك وبين الجنة والنار إلا أن تموت.

فلا ينتظر أحدنا خروج المسيح الدجال ولا نزول عيسى عليه السلام ولا خروج الدابة ولا خروج يأجوج ومأجوج، فليس بالضرورة أن يشهد جميعنا علامات الساعة، فأنت متى ما انتهت حياتُك وانغلق قوسُك قامت قيامتك ..

إذاً لا يوجد لدينا أي ضمانات أننا سنعيش تلك الحياة الطويلة، فأين مشكلة الأمل؟

المشكلة هي أنها تجعل الإنسان يقول لنفسه: سأستمتع بشبابي، وسأعيش كما أحب، ويستطيل الحياة وهو لا يعرف أن موته أقرب إليه مما يتخيّل ..

إذاً الإحساس بأنَّ الحياة لا يزال فيها مُتسع وأنها طويلة هو أول سبب في عدم انتفاع الإنسان من رحمات الله عز وجل؛ لأن الأمل يجعله ينصرف عن فعل الحسنة المضاعفة؛ ويغمر نفسه بوحل الذنوب والخطايا ويغرق بها، أملاً بأنه سيتوب في يوم من الأيام، فهل تملك أي ضمان أنك ستعيش للغد؟ حتمًا **لا** !

يقول الله عز وجل: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}

[سورة الحجر، 3]

إذاً خذ من أملك ما تريد، ولاحظ في قوله: " يأكلوا ويتمتعوا" يتضح منه أن الإنسان غافل في حياته ولا يشعر أن هناك أي شيء سيلحقه من موت أو غيره.

فالعاصي أو المذنب حين يذنب ويرجف فؤاده خوفاً فهو على خير، فهذه الرجفة تعني أن ضميره مازال على قيد الحياة، وأن هذا الإحساس سيلحقه إلى أن يتركه، لكن المشكلة الحقيقة تكمن حينما يموت الضمير ويهدأ الإحساس، فلا تسمع له همساً ولا ركزاً، فتمضي حياته في غفلة إلى أن تنتهي..

بعض القصص التي تروى عن بعض الفنانات والتي تكون إحداهن متحجبة ثم نزعت حجابها، ويكون ارتداؤها له أصلاً بعد مرض عضال أصابها أو ما شابه فوافق قرارها لحظة مؤلمة في حياتها، فتكون التوبة لسبب معين ثم تعود عنها بعد فترة من هذه المصيبة، هذا القرار إنما نشأ من شعور زارها في لحظة شعرت بها أن الدنيا صغيرة، والحياة قصيرة، مما جعلها تتساءل إن كانت هذه الدنيا كذلك فلمَ أملأ بما بقي منها بالذنوب وألطخها بالمعاصي؟!

فحينما يزول هذا الشعور ومسببه يعود على ما كان عليه الإنسان من ذنوب ويرجع أمله الطويل كما كان..

فلماذا ينتظر الإنسان هذي اللحظات الفاصلة في حياته؟ ولماذا يُقاد إلى الجنّة بالسلاسل، مكبلاً أرغمه ابتلاؤه فلجأ إلى الله في آخر أمره!!

السبب الثاني

أن يستسهل الوقوع في الذنب

فيصغر الذنب في عينيه، ويهون في نفسه، فيمارس الذنوب في يومه دونما يشعر بأي شعور، فالذنوب في قاموس حياته هي كبائر الذنوب فقط من قتل أو زنا أو سرقة، فما عدا ذلك فهي ذنوب صغيرة، أمرها يسير، فكأنها لا تسطر في كتاب، ولا يلحقها عقاب، دونك قصة الغلام الصغير الذي خدم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبلغ من العمر ستة عشر عامًا أو دون ذلك، لكنّه مكلّف، فأصيب هذا الغلام في غزوة خيبر بسهم فمات، فصاح الصحابة قائلين: طوبى له فقد مات شهيداً، استبشروا رضوان الله عليهم, فبطبيعة الحال فهو عاش على خير بخدمة النبي عليه الصلاة والسلام في حياته ومات على خير مستشهداً في معركة فيا لها من حياة ويا لها من نهاية! فقال النبي عليه الصلاة والسلام: وما أدراكم؟ لعلّ الشملة التي غلّها - أي أخذها من الغنائم قبل اقتسامها - تشتعل عليه ناراً، والشملة قيل هي حزام, أو قيل رداء، فلعله هانت في نفسه ورآها شيئا يسيرا لا يستدعي الاقتسام كبقية الغنائم, فليست بذهب ولا فضة، ولكن هذا الشيء البسيط في ميزان الله كان كافياً بأن يشتعل قبره به ناراً، فحينما تذنب تأكد

أنك مهما حقّرت الذنب في نفسك، فاعلم أنه في ميزان الآخرة لن يمر مرور الكرام

فإذا كان هذا صحابي عاش مع النبي عليه الصلاة والسلام ومات في معركة، إذاً فماذا عنّا نحن؟! وما الأشياء التي فعلناها في حياتنا وقد تشتعل بها قبورنا ناراً؟ في حين أننا ماكنّا نتخيل بأنه ذنب عظيم !

{وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ } سورة النور15

فلما سمع أحد الصحابة هذا الحديث جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام بشراكِ نعلِه وهي سير النعل على ظهر القدم، وقيل هي التي تمسك ما بين الإصبعين، فقال يا رسول الله وجدته في أرض المعركة، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: ((شِراك من نار - أي لو ما أرجعته لعُوقبت به بشراك من نار- الشراك هذا الشي البسيط الصغير أوَ كان الصحابة يظنون أنهم سيسألون عنه ويحاسبون عليه !

قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: (يا عائشة إياكِ ومحَقَّرات الذنوب فإن لها من الله طالباً) حديث صحيح

<u>محقرَّات الذنوب</u>: أن يفعل الرجل الذنب فيحتقره، مثلاً: أن تظهر الفتاة طرف رجل من أسفل لأجل التزين بالخلخال وما كانت تظن أن هذي المساحة من الساق ستُسأل عنها، ولا تلك الخصلة التي ظهرت من تحت حجابها، ولا ذلك المعصم المزين بالأساور، ولا حتى ذلك الوجه الجميل الذي كُشف - في حين أنه لم يفتي أي عالم من العلماء بجواز كشف الوجه للمرأة الجميلة وبلا خلاف - الآن كل هذه المحقرات من يضمن بأنها لن تشتعل بها النار!

القضية ليس قضية تخويف أو ترهيب، إنما هي قضية تحذير بأن لا يصاب المرء بداء التهاون؛ فيظل يحتقر هذه الذنوب حتى يُجر إلى ذنوب أكبر منها من غير أن يشعر ..

ومن المواقف النبوية التي تقرر عِظم هذا الأمر هو أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لامرأة قالت لولدِها وهو يلعب: ها تعال أعطيك، فقال لها النبي عليه الصلاة والسلام: وما أردتِ أن تعطيه؟ قالت: أعطيه تمراً، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: ((أما إنكِ لو لم تعطيهِ شيئاً كُتبت عليكِ كذبة)) حديث حسن .

معشر الآباء والأمهات، كم من الكذبات كُتبت ونحن نربّي؟

وهل أدخلنا هذه الكذبات اليسيرة في قائمة الذنوب السوداء، هل وضعناها في ميزان سيئاتنا!

فالحذر الحذر، فإن ميزان الآخرة دقيق ...

يقول الله عز وجل: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} سورة المطففين 14

هذه الآية يشرحها قوله صلى الله عليه وسلم: ((إن الرجل ليذنب الذنب فيُنكت في قلبه نكتةً سوداء, ثم يذنب الذنب فتنكت أخرى حتى يصبح قلبه لون الشاة الربداء)) حديث صحيح

النكتة السوداء هي: الذنوب السوداء، وهذا من أعظم الأحاديث التي تبيّن عمل الذنوب في القلوب،فكلما أذنب الإنسان ذنبًا نُكت فيهِ نكتةً سوداء؛ فقلوبنا التي بحجم قبضة اليد تُرى كم يحتاج تحوّلها إلى اللون الأسود، فلو أننا نحسب ذنوب سنة واحدة فقط، ونخمّن أننا نذنب في اليوم الواحد عشرين مرة، سنة واحدة فقط وليس عمراً كاملاً تسببت بسبعة آلاف وثلاثمائة نكتة سوداء, أما تكفي هذه فقط أن تكسوَ قلوبنا الصغيرة بالسواد!

راقب نفسك أتذنب في يومك كله أقل من عشرين أو أكثر!

في ساعة تصفحك فقط احسب كم من ذنب يُكتب! إمَّا من حساب زرته أو مقطعٍ شاهدته أو سمعته !

تفكّر في خمس دقائق قضيتها فيما لا يرضي الله عز وجل، كيف ستُحسب، أتحسب كلها ذنب واحد أم على كل دقيقة ذنب أو كل ثانية ذنب أم ماذا !!

القضية الآن هي **ميزان يزن أعمالك، و قلب يتغير بأفعالك ..**

المشكلة في قضية التهاون أن ذلك لا يتوقف فقط على تهاون المرء بالذنب، بل أيضا سهولة الوصول للذنب سبب قوي للتهاون فيه، فتجد أن الذنب يصل إليك وأنت في مكانك، جوالك في متناول يدك، يأتيك كل ما تريد بضغطة زر واحدة فقط! تتصفح المواقع والحسابات دون أن تقوم من مقامك، ودون أن يعلم بك من بجانبك ..

هذه السهولة في وقوع الذنب تجعل الإنسان يتهاون ولا يشعر أنه أذنب، لأنه لم يذهب إليه سعياً بقدمه، لكننا الآن لا نتكلم عن ذنوب الشخص التي يبطشها بيده أو يذهب إليها بقدمِه، إنما نحن بصدد ذنوب جوارحك التي لا تبذل أي جهد عند اقترافها إما أن تكون نظرة من العين وسماع من أذن وكلمة من فم .

إذاً فالتهاون واحتقار الذنب واستسهاله من الأسباب

التي تجعل الإنسان لا يفوز برحمات الله ..

السبب الثالث

غفلة الإنسان عن عيوبه

فقد تعدد في آيات الذكر الحكيم ذكر بعض العيوب التي أُلحقت بطبيعة الآدمي، وقال الله عز وجل عنه تجاه حمل الأمانة:

{وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا} سورة الأحزاب 72

وقال عنهُ في آيةٍ أخرى: { خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ } سورة الأنبياء37

وفي سورة طه:{ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ } سورة طه 115

إذاً فالإنسان مركب أساساً من عيوب موجودة فيه جبلة وطبيعة, فليس هناك بشرٌ كامل بأوصافه، وما من إنسان منّا وإلا فيه عيب من هذه العيوب.. المشكلة تكمن في غفلتنا عن عيوبنا وتعايشنا معها، وفرضها على من هم حولنا، فلا يصبح لدينا أي إحساس في الرغبة بالتغيير. فعندما بعث الله عز وجل النبي عليه الصلاة والسلام ذكر الحكمة من بعثته فقال تعالى: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} سورة الجمعة 2, ما معنى قوله {وَيُزَكِّيهِمْ} و

ما الفرق بينها وبين قوله: {وَيُعَلِّمُهُمُ } ؟

معنى قوله تعالى {وَيُعَلِّمُهُمُ} أي دلهم على الطريق، أما قوله {وَيُزَكِّيهِمْ} فيعني يطهّرهم؛ فيتجلى لنا هنا المعنى السامي لمُهمة الأنبياء والتي لا تقتصر فقط على تعليم الناس ما شرعه الله جل وعلا بل كانت تصبو لتزكية الناس بهذا العلم.

إذاً الإنسان لكي يطهّر نفسه من العيوب يجب أن يعرف عيوبه أولا، ويحاول تصحيحها ويسعى لتغيير نفسه للأفضل، فالإنسان فيه من العيوب ما فيه؛ فقد يخاف وينسى ويغضب ويظلم ويبخل، أو ينام كثيرا، ويأكل فضلاً عن حاجته، هذه جميعها من عيوب الإنسان، ولكن باستطاعته تغييرها.

فدعك من تبرير عيوبك بأنها صفتك وطبيعتك ولا يمكنك تغييرها، فحين تغضب تقول حبل احتمالي قصير، أو لا أستطيع السيطرة على غضبي، كل هذه حجج نبرر فيها عيوبنا فقد قال النبي عليه الصلاة السلام:

((إنّما العلمُ بِالتَّعَلُّمِ، وإنّما الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ)) حديث حسن

والأعرابي لما جاء للنبي عليه الصلاة والسلام قال : ((دُلني على عملٍ إذا عملته دخلت الجنة)) فما أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالجهاد ولا الصلاة في وقتها مع إن كل هذه الإجابات كان قد قالها لغيره، لكن هذا السائل فيه عيب يجب عليه إصلاحه أولا، فقال له صلى الله عليه وسلم : لا تغضب ، قال يا رسول الله : دُلني على عمل غيره إذا عملته دخلت الجنة، فقال له عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات : لا تغضب، لا تغضب، لا تغضب ولك الجنة.)).

إذاً <u>قد يكون بابك إلى الجنة هو تغيير صفة من الصفات التي ظننت يوماً من الأيام أنه ليس بقدرتك تغييرها</u>.

فموضوع العيوب مهم لأن **عيوب النفس سرّاقة**، فالإنسان لا يسرق فقط من نفسه بل يسرق أيضا من طباع غيره، فمثلاً لو صاحبت جريئًا على الله، يُغامر في كل شيء حتى في الدين، فحتما سيجرّك معه للذنب ويزيّنه في عينك، ويصغرّه في نفسك حتى تقع فيه بلا وعي منك .. قد تتدرج في ذلك قبل الوقوع فيه, ففي بداية الأمر تنفر نفسك وينكر قلبك ثم في الثانية يتردد صدى الذنب في نفسك وتشعر أنه حملا ثقيلا عليك , ثم إنّك اقترفته وأنت تَعِد نفسك أنها الأولى والأخيرة ولن تكن كذلك, فستأتي الثانية أسهل وتقع في الثالثة والرابعة وهي أخف عليك مما سبق, <u>فكثرة المساس تذهب الإحساس</u> .

فمن المهم أن تعرف

أن طباعك سرّاقة وأن العيوب التي فيك ليست عيوبك الشخصية فقط، بل أنت تأخذ أيضا من عيوب الآخرين إذا سمحت لهم بذلك " قل لي من تصاحب أقول لك من أنت " فأنت جزماً ستصاحب هؤلاء.

السبب الرابع

تهاون الإنسان في أخلاقه

قد يجول في عقلك سؤال : لماذا موضوع الخُلق مهم ؟ لعلك تجد الجواب في قوله عليه الصلاة والسلام:

((إنّما بُعثتُ لأُتممَ مكارم الأخْلاق)) حديث صحيح

فيقول أحدُهم معلقاً على هذا الحديث:

الدين هو الخلق **فمن زاد عليك في خُلقهِ زاد عليك في دينه، فقضية تخلّقك بمحاسن الأخلاق ليست أفضلية زائدة، إنما هو في صميم دينك أن تكون أخلاقك حسنة، وكما أنّ هذه الأخلاق الحسنة لا تأتي من لا شيء، بل تأتي من اعتقاد أنت تعتقده في قلبك، ومن يقين بما عند ربك من جزاء وثواب، ولذلك تجعل أخلاقك حسنة مع كل الناس وفي كل حال.**

فلا تجازيهم بالمثل فتحسن لمن أحسن وتسيء لمن أساء، ولأن خلقك دينك فأنت لا تعامل الناس بإحسان من أجلهم، بل تعاملهم كذلك من أجل الله عز وجل، ذُكر أنّه لما قيل لأحد الخلفاء حينما أعطى فقيرًا مبلغًا من المال: لو أعطيته أقل من ذلك لكفاه، قال: إنّي لم أعطِه - أي الرجل الفقير- إنما كنتُ أنظرُ لنظرِ الإله, فهو حينما يعطي العطيّة لا يعطي وهو يقدّر حاجة من يعطيه، بل إنه يمد يده بالعطاء وهو يعلم أن الله يراه، فيحب حينئذ أن تكون يده مليئة إجلالاً منه لنظر الرب، فهذه الأخلاق لا تأتي هكذا بل تأتي من عقيدة يؤمن فيها الإنسان.

ففي ذكرنا للأخلاق نجد أننا نشير إليها جميعها ولا نقتصر على بعضها دون البعض، فيأتي ذكر الكرم والتضحية والمروءة والعطاء والإيثار وغيرها ..

قف قليلا واسأل نفسك سؤالاً في الأخلاق!

هل شعرت في يوم من الأيام أنك تخلّقت بخُلقٍ ما، في موقفٍ ما، وقد سجلته موقفاً بطولياً لك في حياتك؟

كظمت غيظك مثلا، عفوت وأنت قادر على أخذ حقك! أو أحسنت لشخص أساء إليك إساءة موجعة!

أيُّ موقف رأيت فيه هذا الخلُق واضحاً جليّاً..

التابعي سعيد بن المسيب رؤي في منام بعد أن تُوفي فقيل له: ماذا فعل الله بك؟ قال: دخلت الجنة فإذا منادي ينادي من فوقي: أتذكر يوماً آثرت الله فيهِ على هواك؟ فقال: إي والله، فأخذني النثار من كل جانب، والنثار ما يُلقى على العروس عادة من الزينة، فكان ابتداء مَقدمِه إلى الجنة أن سُئل هذا السؤال تذكيراً برحمة الله عز وجل الذي أخذها، فأنت لم تُدخَل الجنة بعملك بل دخلت برحمة الله عز وجل، لكن هل تذكر موقف في حياتك آثرت الله فيه على هواك؟

تخيل أنك سُئلت هذا السؤال! هل تستطيع الإجابة عنه بنفس ثقة سعيد بن المسيب !! إي والله نعم أذكر مواقف كثيرة آثرت الله فيها على هواي، كنت أنا أريد شيئاً وأهوى شيئاً لكني آثرت الله عز وجل ولم أفعله.

هنا نجد أن الهوى متعلق بشكل كبير بمكارم الأخلاق، لأنك حتى تتصف بهذه المكارم يجب عليك مُخالفة هواك، فمثلاً حين تعفو عمن أخطأ عليك، فأنت خالفت هواك بأخذ حقك،، وحين تُحسن لمن أساء خالفت هواك برد الإساءة، وكذلك حين تتحلى بالكرم, فأنت حين تُعطي الناس لن تعطي فقط بل ستعطي بسخاء، فيتوجب علينا حينما نتحلّى بهذه الأخلاق أن نتجرد من جميع الأهواء، ومن حظوظ أنفسنا للحد الذي يشعرنا بأننا نتعامل مع الله لا مع البشر.

السبب الخامس

أن يحرم الإنسان نفسه من التعلّم

فلا يعطي نفسه فرصة بأن يتعلم متى يغتنم مواطن الرحمات وكيف ينهل من بركاتها؟
فكل معلومة مرّت بك، أو موعظة طرقت سمعك، لو لم تفتح لها في قلبك باباً لمعرفتها والوصول إليها كيف ستطبقها؟
إذاً فالناس الذين يغلب الواحد لديهم العشرة، هم الذين لم يعطوا أنفسهم فرصة بأن يتعلموا ما هي مواطن تلك العشرات المضاعفة؟ فمثال عليها مما جاء في السنة النبوية كثيرة فخذ مثلاً:
((**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**))، ((**ومن قالها مائة مرة غُفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر**))، فالآن هذه المعلومات لن يمنعك من ثوابها إلا أن تتعلمها، فإن تعلمتها طبقتها وفزت بثوابها مضاعفاً، بينما فاتك ذلك لو لم تتعلمها ابتداءً.
الآن ترى حولك من الناس مَن بلغ عمره الأربعين والخمسين أو جاوز ذلك وهو لا يعرف معنى قوله تعالى: {**غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ**} أو لا يعرف ماذا يعني قوله: {**اللَّهُ الصَّمَدُ**} وهي في سورة الإخلاص التي نحفظها صغاراً، ويكثر البعض قراءتها في صلاته، فلو تعلّم كلٌ منّا ماذا تعني كلمة الصَّمَدُ؟ وعلِم أن الصمد اسم من أسماء الله الحسنى وعرف معناه، لذاب قلبه من هذا المعنى، واستشعره في مواطن حياته كلها، فإن كان في فاقة أو حاجة أو كرب وابتلاء ولجأ إلى الله يدعوه، حتماً سيكون أمام عينه اسم الله {**الصَّمَدُ**}.
إذاً كم من المعاني التي تُشعرك بحلاوة الإيمان وقد فوّت على نفسك حلاوتها ولم تتلذذ بها، فقط لأنك لم تتعلمها!
وكم يبعدك ذلك عن دار المثوبة ويدنيك من دار العقوبة؟

أختم الحديث عن هذه الأسباب بـ

أن أضع بين يديك **مجموعة من الخطوات** إذا فعتلها تستطيع بإذن الله أن تتغلب على هذه الأسباب الخمسة التي ذكرناها:

الخطوة الأولى:

أن تتعلم فلا تبخل على نفسك بالتعليم

فتجد في الواقع أنّنا لا نبخل على أنفسنا بأي معلومة من معلومات الدنيا وأي شيء من الممكن أن ينمّي ذواتنا ويطوّر شخصياتنا، فنلتحق بدورات ومحاضرات رغبة منّا بالتغيير, فماذا لو أنّنا نهتم أيضا بالجانب الروحي ولا نبخل على أنفسنا بتعلّم علوم الكتاب والسنة ! إذاً لتذوّقنا حينها حلاوة هذا الوحي وطراوته في أرواحنا.

إذاً الخطوة الأولى تعلّم وهذا العلم سيزيد من فرصة نجاتك, وهو سلاحك بحياتك

قال الله عز وجل :{ فاعلم أنه لا إله إلا الله }

سورة محمد19

الخطوة الثانية:

<u>الوقاية خير من العلاج</u>

سئل الإمام أحمد : أيهما أحبُ إليك؟ الرجل يُذنب ثم يتوب أم الرجل الذي لا يُذنب ، أيهما أفضل ؟ فقال الإمام أحمد : لا أعدلُ بالسلامةِ شيء ؛ لأنه لا يُذنب إطلاقاً لا شك أنه أفضل ، فهذا الذي يُذنب ثم يتوب ثم يُذنب فيتوب ثم يُذنب فيتوب ، كمن كان لديه ثوب فاتسخ ثم غسله, واتسخ أخرى فغسله, ثم اتسخ فغسله, فما حال ثوبه هذا ؟ أهو كثوبٍ جديدٍ لم يتسخ ولم يُغسل ؟ هل يستويان مثلا؟ كلا بل شتّان بينهما, فالثوب الأول اهترأ وبليَ , وإن كان هذا أفضل بكثير من الثوب الذي اتسخ ولم يغسل أبدا - وهذا خارج المقارنة الآن- فنحن نقارن بين أفضليين اثنين , بين مرتبتين أعلى من الثالث المُتسخ الذي لا يغسل أساساً، فشخص لا يُذنب والثاني يُذنب ويتوب ، أيهما أفضل ؟

الأفضل هو أن تسلَم , وألّا تضع نفسك في موطن اختبار بين الذنب والتوبة , فالسلامةُ لايعدُلها شيء ،

فهؤلاء إخوة يوسف عليه السلام ماذا قالوا ؟ نقتل يوسف ثم نستغفر ونتوب ونكون من الصالحين، ثم ولأنهم أبناء لأنبياء وعندهم الإحساس بالذنب تراجعوا عن قتله وقرروا تضييعه مع عزمهم على التوبة بعد ذلك.

إذاً هناك من يجول في نفسه مثلما جال في نفوس إخوة يوسف عليه السلام , وهناك من يفكّر بالذنب والتوبة في آن واحد ، لكن ما لذي يمكن أن يحدث حينها !

فإن حدث وأذنبت فإنّ أول ما قد يواجهك هو أن يحلو لك الذنب, ثم يرى أصدقاء الباطل تنازلك للذنب ، فمالذي يمنع تنازلك للمرة الثانية والثالثة ؟ فيذكرونك به , ويدعونك إليه , وإن رفضت نعتوك بألفاظ التناقض والنفاق, فلا يزالون كذلك حتى تمارس الذنب بشكل عادي .

فالوقاية هي خير من العلاج، فخذ نفسك بمنأى عن مواطن الذنوب، وانظر إلى الشيء الذي يغرقك بالذنوب فابتعد عنه ولا تذهب إليه، والأمر الذي تعلم أنك لن تستطيع مقاومته احرص على ألّا تضع نفسك بموضع تضعف فيه, ولا تضع قلبك في مكان لن تستطع فيه حمايته ، فالبعض يقترب من الذنب اقترابا شديدا بحجة الرؤية فقط ولا ينوي أن يفعل، ولكن مع كثرة العرض على الذنوب تجعل النفس تألف والقلب يتشوّق فيبدأ يحوك الأمر في نفسه وتجول الشبهات في عقله ، فتجده يتساءل عن الدليل ، وعن حكمة التحريم ، أو يبحث عن فتوى تتوافق مع هواه .

فطالما كانت هذه الذنوب أمام عينيه فلن يقاوم أبداً, فالأسلم أن يغمض عينيه ويبتعد, فكلما ابتعد عنه زادت مقاومته .

فهذه الحكمة "الوقاية خير من العلاج" ليست حصراً في الصحة الجسدية فقط بل مدلولها كبير ويدخل فيه ضمان صحة القلب والروح والنفس من كل ما قد يلحق بها الضرر من الذنوب والآثام ، فلا تختر أن تذنب ثم تعالج نفسك بالتوبة, بل إن استطعت ألّا تذنب أصلاً وتحفظ قلبك نقياً ونفسك زكيةً فافعل.

الخطوة الثالثة:

<u>أشغل نفسك بالحق، تنشغل عن الباطل</u>

فأنت عندما تُشغل نفسَك بالحق وتعمر وقتك بالخير والعمل الصالح لن يكون لديك وقت لممارسة الباطل , ولا يخطر على بالك حتى مجرد خاطره ؛ لأن ذهنك مشغول عنه مملوء بغيره, ولأن قلبك ووقتك معمور بالخير، وعمران الوقت بالخير من العمر المبارك, ولا يستطيع إنسان أن يعيش حياة معمورة بالخير إلا إذا عزم على ذلك ووفقه الله إليه.

كان أحد السلف يلازمه هذا الوصف عند ذكره فيقال عنه : كان عمره معموراً بالخير ، لاحظوا كلمة (معمور) , نحن غالباً نسمع هذا الوصف مرتبطًا بالأشياء فيقال مثلا : بيت معمور بالناس, أو وقت معمور بالطاعة لكن أن يكون الإنسان عمره معمور بالخير, فهذه الصفة نادرا ما يوصف بها إنسان .

أشغل نفسك بالحق ولا تتركها تموج في وحل الفراغ، لأن مغريات الحياة كثيرة, وبمجرد فراغك في لحظة من اللحظات سيتخطفك الناس من حولك, كلٌ يدعوك إلى ما تملأ به فراغك, وقد تملأ هذا الفراغ بأشياء وأمور مُباحة ، لكن هذا الشيء المباح والإكثار منه ككثرة الأكل والنوم وكثرة الاجتماعات والزيارات وما شابه تجعل القلب يتعلق بالدنيا ، وتفوِّت عليك الكثير من الفرص والأمور النافعة والجيدة التي ممكن أن تملأ بها حياتك .

اشترك في أي برنامج نافع، وإن استطعت أن تشترك في اثنين فاشترك, وإن استطعت في ثلاثة فاجعلها ثلاثة واعمر حياتك و قلبك بهذا الخير، املأ فراغك, كُن مشغول لكن مشغول في طاعةِ الله، " فنفسك إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية " ، قد تقضي اسبوع كامل مزدحم بالأعمال والأشغال أو الدراسة ثم في نهاية هذا الازدحام تجد نفسك أمام أول عشرة دقائق , ماذا ستفعل بها ؟ أقرب ما يكون إليك وأسهل ما قد تقوم به هو أن تمد يدك إلى حيث هاتفك المحمول, وتتنقل بين كل حساباتك وحسابات ممن تتابعهم في شبكات التواصل الاجتماعي وتعوّض كل ما فاتك ولم تطّلع عليه في أسبوعك المزدحم ، في هذه الدقائق العشرة فقط انظر كم حسنة كسبتها من الحسابات المفيدة اللي تتابع ، وكم سيئة لحقتك من الحسابات غير المفيدة التي مرّت بك أثناء تصفحك وإن لم تكن متابعا لها.
هذه دقائقك الأولى بعد أسبوع كامل مزدحم ، فماذا لو كانت ساعات أو يوم أو أكثر من ذلك !

فاحذر هنا أن تلبي دعوة الشيطان, وأن تجيب على هتافاته واقتراحاته حال فراغك, وتذكيره المستمر لك بنصيبك من الدنيا و بحق نفسك عليك, وكأنما لو زاحمت نفسك بالطاعة لن تكون لديك حياة , فحياتك الحقيقية هي التي تقضي بها أيامك هنا وأنت تعمرها بالخير لتحيا في الحياة الخالدة هناك في مستقر رحمة ربك, قال الله عز وجل :{ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } سورة القصص,77

الخطوة الرابعة:

اكتشف ذنوبك أو عيوبك مبكرًا
ولا تسمح لها بالانتشار

مهم جدا أن تتنبه لو وجدت نفسك تميل عن المسار الصحيح, أو وجدتها فترت وضعفت ، أو حتى لو وجدت في نفسك ضيقاً ليس له مبرر, وأصبحت وكأنك تتنفس من ثقب إبرة أن تتنبه لذلك و إياك أن ترى ذلك شيئا عادياً وتتعايش معه وكأنه أمراً طبيعياً , بل اسأل نفسك ! ابحث عن سبب هذا التغيّر , اكتشف ما وراء إحساسك بالضيق واليأس والإحباط ! فلا يمكن أن تتعامل مع هذه الأمور وكأن الجميع يمر بها , لأن الإنسان الذي يعرف الله عز وجل ويذوب قلبه بيقينه بحكمته في كل قضاء, وتدبيره في كل أمر, وأن الله لا يقضي إلا خيرا لا يمكن أبدا لمن عاش قلبه بهذا الاعتقاد أن يمر بمثل هذه الأحداث والأحاسيس, فهو قد يحزن فترة , ويتألم أخرى و لكنه لا يُصاب بهذا الضيق ولا بذلك اليأس والإحباط ولا يمتد أثرها معه ؛ لأنه إنسان يعرف في قرارة نفسه أن هذه الدنيا كلها لا تستدعي منه استهلاك مشاعره فضلاً عن استهلاك حياته.

إذاً عندما تعرف وتكتشف أمراضك مبكراً, وتعمل تحاليل كاملة لحياتك ، وتتساءل في نفسك, لماذا أشعر بالضيق بلا سبب ؟ لماذا لم أعد أستطيع صوم الإثنين والخميس كالسابق ؟ ولمَ أصبح قيام الليل ثقيلاً علي ؟ ومالذي يمنعني من فعل كذا ؟ أو ترك كذا وكذا ؟ تساؤلاتك هذه تساعدك في اكتشاف مواضع الخلل وتقويمها , وجوانب النقص وإكمالها , وستعرف مواطن الذنوب و تهجرها, فاكتشافك لها مبكراً من مصلحتك , لأنك حينها تستطيع السيطرة عليها, ولن تسمح لها أن تنتشر وتتمكن منك , وستتخذ قرارك بالعلاج, واعلم أن قضية العلاج ليست سهلة ولن تكون بيوم أو يومين بل تستمر معالجتنا لعيوبنا وذنوبنا حتى آخر نفس تتنفسه لأن عيوبنا أحياناً ننتصر عليها وأحياناً تنتصر علينا, وهناك مواقف ننتصر فيها على أنفسنا و مواقف

الخطوة الخامسة:

أن تصبر على العلاج

أغلب الناس يخضعون للعلاج بالمضادات الحيوية ,ويحرصون على الالتزام بوصفة محددة من الطبيب عند استخدامه, لأنه لو لم يلتزم المريض بالجرعات أو بمدة العلاج المحددة قد ينقلب حاله رأسا على عقب, ولا يجد أي فائدة من هذا المضاد, وهذا بالضبط ما يحدث مع علاجنا لأنفسنا .

هذه الأشياء المادية هي نماذج لما يحصل في الأمور الروحية فكما يصبر الإنسان على علاج جسده, فيجب أن يصبر على علاج روحه, فأنت حينما تقرر أن تترك ذنب ما ثم تعود إليه , ثم تتركه وتعود إليه مرة أخرى يكون امتحانك أصعب ؛ لأنك قررت تركه فلن يكون امتحانك كأول مره بل حتى ذنبك قد يزيد شراسة , ويقعد لك الشيطان كل مرصد, فيكون حينها امتحانك أصعب وأشد . و يصبر على هذا العلاج صاحب العزيمة الذي رجع في هذا الموقف لله عز وجل , فلن ييأس لأنه يعلم أنه إذا لم يصبر على علاجه , سيسوء الأمر أكثر مما هو عليه , ويزيد المرض سوءاً وشراسة .. يقولون في الإسعافات الأولية أنه إذا أصيب الإنسان بجرح وتعرض لنزيف, فيجب أن يضغط على مكان الجرح ليتمكن من إيقاف النزف, وسيشعر حينها بألم شديد عند الضغط عليه لكن ليس هناك سبيل لتوقّف الدم إلا بالضغط عليه , كذلك نحن أيضا نحتاج أن نضغط على مكان الجرح في أرواحنا , فجرح الروح ليس جرحاً عادياً ولا الذي ينزف منه دماً بل نزفه إيمان , ونزيف الإيمان هذا يستهلك رمضانك الماضي و ختماتك للقرآن وصدقاتك التي أخرجت, وكل أعمل الخير التي قمت به , فالسيئات اليومية التي نقترفها تتسبب في استمرار هذا النزيف, وسيبقى الجرح مفتوحاً والنزيف مستمرا ما بقيَت تلك الخطايا تُقترف , وأعمالنا الباردة التي نضعها عليه ستكون بمثابة ضمادات الامتصاص فقط , فلا هي أوقفت النزف ولا أغلقت الجرح .

فالصبر على العلاج أمر ضروري لأن محاولة ترك الذنب و مخالفة الهوى, فيها من المشقة ما فيها , ولا تكتفي فقط بمعالجة نفسك بل بادر لمعالجة من حولك , فلو رأيت أخاك أو صاحبك ينحرف عن جادة الحق ويتغير شيئا فشيئا , لا تتوانى في إنقاذ روحه كما لو أنك بادرت لإنقاذه من إصابة في جسده , فإنقاذ روحه من النزيف الإيماني أولى, أمسك جرحه وانصحه بأن يداوي الجرح قبل أن يتسع ويصعب علاجه, فكل هذه الجروح نشأت من ذنب استسهله الإنسان حينما ظنّ أنه ما زال في الحياة متّسع ليتوب بعد ذلك , وغرته ملذات الدنيا عن الاستعداد لنعيم الآخرة .

<u>ختاما ..</u>

ابتدأنا في البداية بسرد بعض الأدلة من القرآن والسنة كقول الله عز وجل:

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} سورة الزمر53

وقوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه عز وجل :

(و لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)

لنبيّن أن <u>هذه الرحمات السماوية لا يبتعد عنها إلا من أراد أن يبتعد.</u>

يقول النبي عليه الصلاة والسلام :(كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قيل : يا رسول الله من يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) حديث صحيح.

فليس هناك من يرفض ويأبى أن يدخل الجنّة , ولكن هناك من يرفض اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم, ومن رفض وأبى اتباعها فكأنما امتنع عن دخول الجنّة .